

على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

تقدم فزاد افرام البستاني

وقد يكون من الامانة ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل السابع

انتفاع الفيرم

فاز الامير حين بفرق ما كان يرثى . فالامير بشير سجين في قلعة الجزار ،
والشيخ بو غانم دفين في لحده ، وممكر بمقلين مضعض النظام ، متفرق
الاعوان ، وقد ضرب رجاله الملا اسماعيل الضربة القاضية في سهول البقاع وسار
متقدماً نحو الشوف . فاجس الامير جبهاه خوفاً من العاقبة واخذ يعقد مجالس
الشورى مع الشيخ حسن جنبلاط ومشايخ الهادي . وبعد اخذ ورد ، قرأ رأيهم
على ترك بمقلين موقناً ، والرجوع كل الى مكانه يترقبون الحوادث ،
ويتصدون الظروف ، حتى اذا امكنتهم فرصة للوثوب وثبوا . ورأوا ايضاً ان
يذهب الشيخ حسن الى عبيه ، فيقول ضيقاً على الامير قعدان ، ويجس عن
قرب حالة الحزب الحاكم ، والامير قعدان من مناصره . فقام الشيخ متفذاً
هذه الخطة ؛ ولكن الامير لم يقبله ، فماد خائباً الى وطنه واختبأ في جبل مرستي
اما المشايخ الهادية فقرأوا لاجئين الى بلاد حوران .

واماً الامير عباس اسد ، الذي علل نفسه مدّة قصيرة بالإمارة ، فلم ير
امامه ، وقد تلاشت امانيه ، ألا الخضوع لتسيه الامير الحاكم ، فقدم دير
القمير وجلاً ، فطيب الامير حين قلبه وأمنه .

وكان قد وصل المنلا اسماعيل بصره الى الشوف بعد ان طهر البقاع من اولئك الشذاذ ، فقوي قلب الامير حسين وخلا له الجو ، فضى في طرق الاستبداد بنظام وبرودة حتى ارحق السكان . وكانت كبرى ظلماته انه فرض على اهل الشوف مائة الف غرش قصاصاً لما اتاه بعضهم من الحركات الثورية ؛ بعد ان ارسل الامير حيدر احمد الى جهات المختارة لتصاص ولدي الشيخ قاسم جنبلاط في ارزاقهم ، ومواليهم . فكان شديد الوطأة عليها .

وكان لاحد افراد الجبلاطين ، الشيخ بشير نجم ، ثار على نسيه الشيخ حسن جنبلاط . فرأى الفرصة مناسبة للانتقام ، فلم يتراجع امام التذلل للمولى الجائر ، والدخول في خدمته متجنباً اخبار الحزب الجبلاطي ، مفتشاً عن مكامن رجاله ثأمة ، وغريفة خاصة . ولكن الواتر كان ابعد من ان يقع في حبال الموتور ، فانه لم يسمع بالامر حتى وثى ظهره ببلاد الشوف ، وذهب يتنقل في مناور حاصبيا ، وماعقلها الطبيعية .

على ان للضغط تحمواً لذا جاررها حصل الانفجار ، وللظلم حدوداً اذا بلغ اليها في شعب من الشعوب اهاب به روح الثورة ، فنادى بالاميان مها كلّفه من التضحيات ، حتى يقرب الظلم على النظام ، ويردّ البغي على الباغى . وهذا ما بدا في لبنان على اثر ذلك الاستبداد . فان الامير لم يكن يقسع الفتنة في المناصف حتى تهيج في المراتيب ، ولم يكن يحمّد الثورة في الشوف حتى تشبّ في المتن . وبعثاً كان يرسل الامير قعدان ورجس باز يتنقلان في البلاد ، فيعدان تارة ويتروعدان أخرى ، ذاهبين من بعقلين الى حمانا ، موفدين الرسل الى حوران وحاصبيا لمخابرة المهادية حيناً والشيخ حسن جنبلاط حيناً آخر .

ظلّ لبنان على هذه الحالة من الاضطراب حتى رجوع الجزار من حج سنة ١٢٩٥ ، فلاقته الوفود الكثيرة من بلاد الشوف ، وبلاد جبيل ، وكل افرادها يشكون من ظلم الاميرين ورجس باز ، ويرجون من عطفه ان يبيد اليهم مولايم السابق ، الامير بشير .

وكان الجزار قد ابتدأ كل ما يؤتمل ابتذازه من اموال ابناؤ الامير يوسف ،

وطمع في ان الامير بشير يزيد على منافسيه في تقديم « الميري » ، فلم يرَ من بأس في قبول شكاوى اللبنانيين . وان من درس تاريخ الجزائر ، وعرف ما كان عليه من الزهم والحرص ، وقلة الاهتمام بالمراعيد والمواثيق ، وسرعة التقلب في الاحكام ، وشدة الملل من مساعديه اذا لم يبتق لهم ما يشبعون به جشمه ؛ لا يستغرب هذا الانقلاب الذي يعادل انقلابه السابق مفاجأة وسرعة . وبلسحة طرف ، تحول اصدقاؤه الامس الى معضوي اليوم ، وسجين دياس عكاً الى امير لبنان .

فرجع اللبنانيون على اعتابهم فرحين بقرب الخلاص . بينما كان الامير حسين ، وقد علم بعودة الجزائر وادرك ما ستؤول اليه الحالة ، يجمع امواله ويترك دير القمر هارباً الى بلاد جبيل صحبة مديرة برجس باز ، ومن بقي معه من الاعوان وفي مقدمتهم الامير قعدان ، والامير سلمان سيد احمد ، وبعض المشايخ النكدية .

اما الجزائر فلما وصل الى عكا ، اسرع بطلب الامير بشير ، فأخرج مع رفاقه من ديتاسهم المظلم الى النور ، وهم حائرون بالثابة من هذا الطلب المستعجل . وما اشد ما كانت حيرة الامير اذ رأى الجزائر يطلع عليه خلة الرضى ، ويرجع له ولرفاقه خيلهم واسلحتهم ، وهو يبش لهم ويظهر لمراحم كل الارتياح .

ولم تكن هذه الفرصة لتفوت الامير ، فشا . الاستفادة منها ، والاستفادة عاجلاً . فتقدم شاكرًا المولى ، طالباً منه الولاية ، متعهداً له بدفع ثمانمائة الف غرش على ست عشرة سنة . واذا رأى الجزائر لا يزال متردداً في القبول كأنه غير واثق بقبض ذلك المبلغ العظيم ، عمد الامير الى طريقة الزهن ، فوعد الجزائر بان يرسل اليه عدة رهائن منها ولداه الاثنان وزوجته . ثم ولعده الامير حسن بإرسال ولده ، ووعد الشيخ بشير بإرسال زوجته .

وبينا الجزائر يفكر في هذه المراعيد ، ويقابلها بما سينيله للامير ، والجميع منتظرون ما سيصدر من اوامر المولى ، تقدم غانم ، وبصوت برجسته فبارة الحزن ، والتجرد ، والتضحية ، قال :

- وانا اقيم منذ اليوم رهينةً بين يدي مولانا «الباشا» يصنع لي ما شاء .
ثم التفت الى الامير بشير وأعوانه ، وقال عجباً عما ظهر على وجوههم من
الاستغراب :

- لم يبقَ لي من رغبة في العودة الى البلاد ، وقد فقدت أملي الوحيد في
قصر الشربين !
فتقدم منه الامير ، وقال هامساً :
- وبدور ؟

فرفع غانم الى السماء عينين شاخصتين ، جالت بين جفونهما عبرات حسارةً
بَلَّتْ الاهداب وارشكت ان تمقط . فردّها خجلاً ، وقال :
- يفعل الله ما يشاء !
ثم التفت الى الباشا ، وتابع :
- اصنع ما تريد ، مولاي ، فانا حاضر .

عند ذلك رضي الباشا بغانم رهينةً ، على ان يرسل الامير ما وعد به من
الرهائن بعد ثلاثة ايام . ثم خلع على مولى لبنان خلعة الولاية ، وزوّده بالدعا ،
واسر بجيشه يراقبه ، فيشهد امامه المعبات ويظهر طريقه من العصابة ، ويرتد
اركان ولايته على أساس القوة والعدل .
فقبل الامير يد الجزار ، ورجا من حلمه وعطفه ان يراف بغانم ، ويشله
دائماً بمعنائه ، وهو المولى الساهر على راحة الجميع ، من لا يحتاج الى توصية
او تذكير .

ثم خرج في اصحابه مع غانم فودّعوه . والتفت اليه الامير شاكرًا ، واعداً
ايه ان يذهب عند وصوله فيزور ضريح الشيخ الجليل ويكرم ذكره حاملاً
اليه احترام غانم . ثم يير الى قصر بعدنان فيسلم على الامير جهجاء ، وعلى
امرأته ، وعلى بدور ، فيطشتم الى حالة غانم . وبعد ان اخذ من هذا الوعد
الاكيد بواصله التحارير ، وبالاجتهد في التخلص من الاستلام للحزن والاسف ،
وبالتفكير في المستقبل الذي سيكون حسناً بعون الله ، قبله بجمارة ووعده
ان يبعث اليه اسبوعاً فاسبوعاً بكل ما يجده من الاخبار . ويكون الرسول

بينها فرحات الامين المخلص .

اما هذا فلم يقوَ على وداع سيده ، بل سار جانباً محدودب الظهر ، وقد
علا نسيجه ، واحمرت عيناه ، وترمرت شفتاه ، فلم يقدر الا على القول :
« الى الاسبوع القادم ! »

لم يجاوز موكب الامير بشير حدود صيدا ، حتى ظهرت له طلائع حزبه
من اللبنانيين المخلصين ، وقد ركبوا خيرهم الاصيله ، واعتقلوا رماحهم اللدنة
وارتدوا افخر ملابسهم ، وتسلحوا بأجمل اسلحتهم ، وتجهروا من كل صوب
لاستقبال اميرهم المحبوب . شاهد متقدمو الفرسان رجال الامير ، فنكصوا
على اعقابهم ، يحملون الى الامير جبهاه ، قائد الجيش اللبناني ، تلك البشري
التمثه .

وما هي دقائق حتى تشاهد الموكبان ، فخرقت الجو زراغيد الفرح ،
وتلاعبت اسنة الرماح في الهواء ، ولمت السيوف خاطفة الابصار ، وعلا صهيل
الحيرول بحية نداء فرسانها . فكانت ساعة فرح وسرور قلما عرفتها المساك
الا بعد الانتصارات الباهرة . وقد اثرت مظاهر هذا الاخلاص الصافي في
فزاد الامير ، فكان ينظر بجنون الى رجاله ، ويندفع نحوهم بكل جوانحه ،
حتى انه ارتقى بين يدي الامير جبهاه يمانقه باسأ ، باكياً ، من شدة الفرح
والتأثر . وكان الامير جبهاه لا يملك عبارته . ولم يترك مطانقة الامير ، حتى
جالت عيناه بين حاشيته باحثين سائلتين . ففهم الامير قصده وقال :

- انه لا يزال في عكا ! وقد فضل البقاء هناك ، اذ لم يبق له من امل

في قصر الشربين !

ثم مسح عينه بطرف كوفيته . فحنى الامير جبهاه رأسه ، ولم يتكلم
خوف ان يتفجر حزنه فينفض على اميره فرح الوصول الى بلاده .

على ان الامير بشير لم يدعه في تلك الحالة ، فاخذ يأله بالتفصيل عن
وفاة الشيخ بو غانم ، وعماً قاسوه جيماً من ضروب العذاب . فكان الامير
جبهاه يروي تلك المصائب ودموعه تهسي ، وصوته يتهدج ، فتجاوبه زفرات

الحاضرين . وقد سكت الزانغيد ، وادكرت الرماح ، وانغدت السيوف ،
واشترك الكل صامتين في سماع تلك الحوادث كأنهم يحضرون جميعاً . ماتم الشيخ
بو غانم .

ثم عزى الامير بشير الحاضرين راجياً من الله ان تكون تلك الرزايا خاتمة ،
احزانهم . وكانت الخيل قد استراحت فأمر بالركوب . فساروا وقد عاد الفرح
يحمل الفرسان ، ألا الاميرين وفرحات ، فسادوا الى الانشيد والاهازيج ،
والمسايقة وضرب الجريد .

عند المساء وصل الموكب الى دير القمر ، فترجل الامير وفرسانه في باحة
السراي الفسيحة . وساروا مع رجاله الى كنيسة سيده التلة ، يشكرون
لسيدة الديرتين عنايتها بهم ونعمها العديدة عليهم ، ويطلبون معرفتها مجدداً ،
ولم تعتد ان ترفضها . وبعد ان تباركوا جميعاً ، دروزاً ونصارى ، بتقييل
هيكلا . ساروا يتنعمون ورجلاً مقدساً ايضاً ، فصعدوا الى قصر الثرين مع
بعض رهبان الانطوش . وهناك ، امام ذاك القبر الحثير بظاهره ، الكبير بما
ضم بين ضنائه ، رقع الامير وحاشيته ، يقدمون لشهيدهم واجب الاحترام
والاكرام ، ويطلبون لانعم بركة جده ، ويصلون عن نفس الميت بيتاً من المسبحة
كان يتلوه الامير فيرد عليه جميع الحاضرين بصوت ملؤه الايمان والتعوى .

وفي صباح اليوم الثاني دخل الامير دوائر سرايته يتفقد شؤون الرعايا .
وينظر فيما تجتمع لديه من الشكاوى ، والدعوى ، والمعارض . ويستقبل وفود
المهنتين ، ومقدمي الخضر من جميع الجهات .
وكان لا يزال عليه فرض آخر وعد غائماً باتمامه ، وهو الذهاب الى بعدران
ليحقي الت سمدى ، وبدور ، ويطنشها الى حالة وحيدهما غانم . فزم على القيام
بذلك في القريب العاجل . وبعد ثلاثة ايام كان على الطريق مع مضيئه الامير
جبهاه ، ومدبره الشيخ سلمو الدحداح ، وقد ترك في دير القمر اخاه الامير
حسن ، والشيخ بشير جنبلاط .

(لها بقية)